

كيف نعيش السنة في معنى الشهر الكريم؟



"قصة شهر رمضان هي أن نفتح أكثر، ونتحرك في إسلامنا أكثر، ونحب الناس أكثر، وأن تكون مسؤوليتنا في الحياة أكثر ليحبنا الله أكثر".

- جولة رمضان الروحية:

كنا في شهر رمضان نعيش في هذه الجولة الروحية التي يرتفع فيها الإنسان إلى الله ويتحرك في رحاب آياته، ويعيش حركة الحب له الذي يمتزج فيه الرجاء والخوف، باعتبار أن الله ليس الحب العاطفي الذي ينبض به القلب، ولكنه الحب الذي يعيش فيه الإنسان المسؤولية أمام من يحب، ذلك أن حب الله مسؤولية وليس نبضة قلب وخفقة إحساس.

وقد حدثنا الله عن ذلك في قوله سبحانه وتعالى فيما وجّه به الخطاب إلى رسوله (ص) (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران/ 31)، فحب الله حركة في العقل وانفتاح في القلب وانطلاقة في الواقع، ولذلك فإنك إذا أحببت الله فإنك تحبه في خط رسالته، والرسالة تقول لك افعل هذا ليرضى الله عنك حتى تحصل على محبته (فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) وإذا لم تفعله فإنك تحصل على سخطه تماماً كما هو الحب في الدنيا، فإذا كنت تسيء إلى من

تحب فمن الطبيعي أن يسخط عليك من تحب، وقد قال ذلك الشاعر وربما ينسب القول إلى الإمام زين العابدين (ع):

تعصي الله وأنت تظهر حبه **** هذا لعمرك في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لاطعته **** إنَّ المحب لمن يحب مطيع

ولذلك فإنَّ حبنا هو حب يختزن في داخله الخوف ممن نحب إذا انحرفنا عن أصول الحب والرجاء لمن نحب، وإذا انسجمنا مع أصول الحب كنا في جولة الحب مع الله نحبه فنترك طعامنا وشرابنا ولذاتنا لئلاَّ نلحقنا أكثر قربة إليه سبحانه لنكون قريبين إليه أكثر.

- معراج الصلاة الروحي:

ونصلي بين يديه لنعطي أرواحنا هذا النوع من المعراج الروحي الذي يجعل الروح تصفو أو لا تصفو وتتصاعد وتصل إلى أن تجلس وتتمرغ بالحب بين يدي الله لتكون الصلاة كما أرادها رسول الله (ص) حركة شكر يشكر فيها الإنسان ربه من خلال نعمة العقل التي أعطته فكرة الحق في الحياة، ونعمة القلب التي أعطته العاطفة التي تجعل حياته حياة طيبة ليُنه منفتحة على قلوب الناس الآخرين وعلى حياتهم، وعلى كل ما أفاض الله عليه في كل حاجاته في الحياة.

إنَّ الإنسان يصلِّي فيذكر ربه ويعمل على أساس أن يكرر عقيدته في صلاته، فالشهادتان تردان في الأذان وفي الإقامة وفي التشهد وتشهد التسليم، بحيث إنَّ هذا التأكيد للعقيدة يتجذّر في وعي المصلِّي وفي وجدانه، حتى يتذكر عمق العقيدة في توحيد الله تعالى ورسالة رسول الله (ص) فيبقى في كل صلاة كما لو كان في حالة طوارئ فكرية أمام كل من يريد أن يبعده عن التوحيد، فقد التقى بالتوحيد في صلاته، أو يبعده عن الرسالة فقد أعطته الصلاة وعي رسالته.

وهكذا تتمثل ربك بأزله رب العالمين، وأزله الرحمن الرحيم وأزله مالك يوم الدين، وأزله المستعان وحده والمعول عليه وحده والهادي إلى الصراط المستقيم والعظيم الذي تسبّح بحمده وعظمته والأعلى وما إلى ذلك.

وفي ذلك تكون الصلاة حركة في عقلنة الحب، بحيث أنَّك تحب ربك من خلال ما تعيشه في صلاتك من صفات ربك، وما تؤديه في صلاتك من تجسيد عبوديتك في إسبال يديك وفي انحناء ظهرك وفي سجود جبهتك.

- صيامٌ وقيامٌ:

وهكذا - أيها الأحبة - عشنا في صلوات شهر رمضان فيما أعطانا الله وفيما فرضة علينا وفيما استحبه لنا في الليل والنهار. ولذلك كان شهر رمضان شهر الصيام والقيام، فأنت تدعو ربك لتذكره فتحدث معه: أعزاً على صيامه وقيامه لأنَّ الصيام إذا لم ينفذ على القيام فإنَّه قد يكون مجرد حالة سلبية في داخل ذاتك لا تعطيك شيئاً.

- أدعية شهر رمضان:

ثمّ تنطلق الجولة الواسعة الغنية بكل الفكر وبكل الروح وبكل الحياة وبكل المشاعر والأحاسيس والعواطف وبكل الخطوط وبكل المبادئ في أدعية شهر رمضان، هذه الثروة الفكرية الروحية الحركية التي إذا تعمّقت فيها رأيت أنّ الدعاء يمثل حركة ثقافية تمونك بكل تفاصيل العقيدة وبكل امتدادات الحركة في الحياة وتمونك بأن تفهم داخلية نفسك وهل أنت تطيع ربك أو تعصيه.

فعلى أي أساس تقوم الطاعة وعلى أي أساس تبنى المعصية؟ هذا هو السؤال. وهكذا نجد أنّ الإنسان العاصي في حياته يحاول من خلال الدعاء في شهر رمضان أن يعلن أنّ معصيته لا تعني الابتعاد عن إيمانه وأن معصيته لا تعني التمرد على ربه، وأنّ معصيته لا تعني الاستهانة بربه وإنما تعني حالة من خطرات النفس وحالة طارئة من خلال ما يحدث للإنسان "إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد ولا بأمرك مستخف ولا لعقوبتك متعرّض ولا لوعيدك متهاون ولكن خطيئة عرضت" - ليس لها عمق في النفس، لأنّ عمق النفس هو الإيمان والإيمان لا يسمح للإنسان في كل جذوره في الذات أن يتكبّر على ربّه أو أن يبتعد عن طاعته "ولكن خطيئة عرضت وسوّلت لي نفسي" - والنفس أمارة بالسوء - "وغلبنى هواي" والهوى يصدّ الإنسان عن الحق "وأعانني عليها شقوتي" هذه العناصر الداخلية التي قد تجل الإنسان شقياً من خلال كل هذه التراكمات التي تزحف إلى عقله وقلبه وحياته.

وهكذا - أيها الأحبة - نلتقي في الأدعية في المعنى الذي يجعل الإنسان يتدلل على ربه بحيث يشعر كما لو كان طفلاً يلعب بين يديه ويتدلل عليه "اللّهم" إنّ عفوك عن ذنبي وتجاوزك عن خطيئتي وصفحك عن ظلمي وسترك على قبيح عملي وحلمك عن كثير جرمي عندما كان من خطأي وعمدي أطمعني في أن أسألك ما لا أستوجبه منك الذي رزقتني من رحمتك وأريتني من قدرتك وعزّفتني من إجابتك فصرت أدعوك آمناً - كما لو كنت لا أعيش أي أساس للخوف - "وأسألك مستأنساً لا خائفاً ولا وجلاً، مدلاً عليك فيما قصدت فيه إليك، فإن أبطأ عني عنت بجهلي عليك، ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور".

- إستحضار الفيوضات:

وهكذا ينطلق الإنسان ليستحضر في نفسه كل فيوضات ربه في حياته الداخلية الخارجية وفي الناس من حوله. تصور إنّك في دعاء صغير واحد تختصر كل ما يعيشه الناس من مشاكل وآلام وأوضاع سلبية حتى إنّك تفكر في الراقدين في القبور لتطلب من الله أن يعطيهم الفرح "اللّهم" أدخل على أهل القبور السرور، اللّهم إغن كل فقير، اللّهم اشبع كل جائع، اللّهم اكس كل عريان، اللّهم اقض دين كل مدين، اللّهم فرّج عن كل مكروب، اللّهم ردّ كل غريب، اللّهم فكّ كل أسير، اللّهم أصلح كل فاسد من أمور المسلمين، اللّهم أشف كل مريض، اللّهم سد فقرنا بغناك، اللّهم غير سوء حالنا بحسن حالك، اللّهم إقصر عدّال الدين وأغننا من الفقر إنّك على كل شيء قدير".

ماذا يمثل هذا الدعاء؟ إنّّه يمثلك وأنت تستحضر في وعيك وفي وجدانك كلّ هموم العالم، ونلاحظ أنّّه

لم يتحدث عن المؤمنين فحسب بل عن كل فقير وكل جائع وكل عريان، مما يعني أنك قبل أن تدعو تفيض إنسانيتك في نفسك فتحمل هموم كل المرضى وكل الجائعين وكل المدينين وكل الغرباء وكل الذين يعانون مشكلة في الحياة، وبهذا تتربى إنسانيتك لتستحضر في نفسك كلمة الإمام علي (ع) في حديثه مع مالك الأشتر (رض) "فإنَّ الناسَ صنفانِ إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق".

- امتزاج الفكر بالروح:

لذلك - أيها الأحبة - ففي كل هذه الأدعية التي تتضرع بها في النهار وفي الليل وفي السحر حامداً مسيحاً مستغفراً ذاكراً مهلاً مكبراً منفتحاً في كل آلامك تفرشها بين يدي ربك، لابد لنا أن نخزن ذلك كله وأن نتثقف بذلك كله لأن ذلك يمثل ثقافة يمتزج فيها الفكر بالروح وتمتزج فيها حركة الدنيا بحركة الآخرة، فأنت لا تبتعد عن دنياك عندما تطلب من الله أن يرزقك وأن يمنحك الصحة والعافية والولد والأمن وما إلى ذلك. ولكنك تجعل ذلك كله في اتجاه الآخرة، وبذلك فأنت تعيش في دنياك آخرتك كما تعيش في مادتك روحك وفي فكرك عاطفتك. وهذه هي قيمة الثقافة الإسلامية التي جاء بها القرآن، فهي ليست ثقافة معلّية ولكنها ثقافة تقتحم الإنسان.

اقرأوا القرآن جيداً لتجدوا أن القرآن يحدّثكم عن الجانب الفكري بالأسلوب العاطفي، ويحدثكم عن الجانب العاطفي بما لا يبتعد عن حركة الفكر ويحدثكم عن الله ليتقرب الله إليك في وعيك فتشعر إن الله معك في نومك ويقظتك، وإن الله معك في مرضك وفي عافيتك وإن الله معك في خوفك وأمنك (لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَك) (التوبة/ 40)، وتشعر بأن هذا الإحساس العميق بمعية الله هو الذي يعطيك السكينة التي يفيضها الله عليك من خلال الاندماج في رحاب ربك.

وهكذا - أيها الأحبة - لابد لنا من أن نجعل الدعاء حالة يومية عندنا، حتى أن أغلب أدعية شهر رمضان ليست مخصصة في معانيها ومضمونها في شهر رمضان، فعندما نقرأ (دعاء الافتتاح) مثلاً فإنّ دعاء تستطيع أن تفتح به خطوتك ويومك ورحلتك إلى ربك، وبحيث تتحرك مع الله في كل صفاته وتنفذ على الرسالة في الرسول (ص) وعلى الولاية في الأئمة (ع) وتنفذ على كل حالة الجهاد والصراع حتى تصل إلى أن تعلن رغبتك إلى الله في دولة إسلامية يعزّ الله بها الإسلام وأهله، ويذل بها النفاق وأهله وتتحول فيها إلى داعية إلى طاعة الله، وأن تكون مشروع قائد في سبيل الله لتحصل بذلك على كرامة الله، ثم لتختم ذلك بأن تطلب من الله أن يعزّك الحق ولتكون كل حركة حياتك بالحق بحيث يكون الحق هو سرّ حياتك.

- الحاجة إلى الزاد الروحي:

لذلك - أيها الأحبة - إنّنا بحاجة إلى هذا الزاد الروحي، وهذا الدعاء الغني بالمعطيات لأنّ - كما قلنا - فيه ثقافة الروح وفيه ثقافة العقل وفيه حركية العقيدة في كل تفاصيلها، سواء كانت العقيدة بالله أو بالرسول أو باليوم الآخر أو بأولياء الله. إنّنا نقرأ إسلامنا في هذا التراث من الدعاء، لذلك

لا تجعلوا الدعاء مجرد موسم تدخلونه في وقت معين أو زمان معين لأنّ ﷻ قال لنا (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر/ 60)، ولأنّ ﷻ قال لنا من دون وقت ومن دون مكان (فَلِإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) (البقرة/ 186)، ولأنّ ﷻ هددنا على بعض التفاسير (قُلْ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا بِيَّ لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَرَامًا) (الفرقان/ 77)، والمقصود بها الدعاء كما هو القرينة في الآية (إِنَّ السَّاعِدِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (غافر/ 60).

والدعاء - أيها الأحبة - هو هذه العبادة التي تختلف عن كل العبادات لأنّ كل عبادة لها زمانها، ولأنّ بعض العبادات لها مكانها، ولكن الدعاء هو العبادة المتحركة التي تملك تحديدها من دون أن يعيّن ﷻ لك ذلك، وإن كان يستحب لك ذلك، إنّك تملك وحدك أن تدعو، فعندما تنام يمكن لك أن تودّع اليقظة بدعاء ربّما يتحول إلى أحلامك وأنت نائم، وأن تنام تحت رعاية ﷻ سبحانه وتعالى، ولتدعو عند يقظتك، ولتدعو وأنت تأكل وأنت تشرب وأنت تمارس لذاتك وأنت تتحرك مع الناس، وأنت تبدأ عملك وتتحرك في تجاربك مع الناس لتدعو لأبيك ولقربائك ولأولياك لمن حولك ولتعيش حركة دعائية توجي بها إلى نفسك.

- الدعاء مسؤولية:

إنّ كل مواقع الدعاء مسؤوليتك، وإنّ كل ما يدو به الإنسان لربه سواء كان شيئاً يخصه أو شيئاً يشمل الناس هو مما للأبد للإنسان أن يعيش همومه وقد ورد عندما في الدعاء للاخوان بظهر الغيب "من دعا لأخيه بظهر الغيب وكل ﷻ به ملكاً يقول ولك مثله" إنّ الأساس في ذلك - وﷻ العالم - هو أنّ ﷻ يريدنا أن نربي أنفسنا على أن نعيش هموم الآخرين في حياتنا من دون أن يعرفوا ومن دون أن يشعروا إخلاصاً منا للأخوة الإيمانية لنبسط همومهم بين يدي ربنا كما لو كانت همومنا.

إنّّه أسلوب تربوي إسلامي يشدك إلى الناس الآخرين ويجعلك تفكر بهم تماماً كما تفكر في نفسك، ويرتفع أهل البيت (ع) حتى عن هذا المستوى، فهذه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (ع) عندما تدعو - في صلاة الليل، وكانت بحاجة إلى أن تدعو لنفسها، إلا أنّها كانت تدعو للناس من حولها ويسألها ولدها الإمام الحسن (ع) وهو في طفولته الأولى "يا أمّاه لما لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك، فقالت: يا بني الجار ثم الدار" فليست المسألة هي أن تساوي الآخرين بنفسك بل المسألة عندهم أن تقدم الآخرين على نفسك (وَيُؤْتِرُونَ عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) (الحشر/ 9).

- الجذب الروحي:

لذلك - أيها الأحبة - ففي هذا الجذب الروحي الذي نعيشه في هذه الصحراء القاحلة التي تعيش في داخل عقولنا وقلوبنا، هذه الصحراء التي ليس فيها إلا لفح السموم وليس فيها إلا غبار التراب، قد نحتاج إلى هذا الخصب الروحي، وقد نحتاج إلى هذه الينابيع الروحية، قد نحتاج إلى الإحساس بحضور ﷻ في

عقولنا ليشرق ا في عقولنا بالحق الذي يشمل العقل كلاًه و ليشرق ا في قلوبنا بالمحبة التي تنفتح على القلب كلاًه و ليشرق ا في حياتنا بالصدق والاستقامة التي تهدي حياتنا إلى الصراط المستقيم.

أيها الأحبة: إن شهر رمضان كان الخزان الذي يحتوي ذلك كله وقد مضى ومضت لياليه، والسؤال هنا: ماذا بقي لنا منه حتى لا نكون مثل من تحدث عنهم الإمام علي (ع) في (نهج البلاغة) "كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ" - إنّه عاش الصيام جنة بلا روح وكم من قائم أو "وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء حبذوا نوم الأكياس وإفطارهم"، لأنّ القضية هي أنّك كلما كنت كيّساً أكثر وعاقلاً أكثر وواعياً أكثر فإنّك تعرف كيف تصلي جيّداً وكيف تصوم جيّداً، فإذا أفطرت كان فطرك في طاعة، وإذا تخففت من الصلاة كان تخفّفك في طاعة.

أيها الأحبة: إنّ قصة شهر رمضان هي قصة أن ننمو أكثر وأن ننفتح أكثر، وأن نتحرك في إسلامنا أكثر وأن نحب الناس أكثر وأن تكون مسؤوليتنا في الحياة أكثر لحيّتنا ا أكثر. وبذلك نلتقي بالعيد في مفهومه الإسلامي "إنما هو عيد لمن قبل ا صيامه وشكر وقيامه" قبله لأنّه صيام الوعي ولأنّه قيام العبودية، قبله لأنّه الصيام الذي يعيش الإنسان فيه مع ا والقيام الذي يعرج الإنسان فيه بروحه إلى ا، وعندما نعيش مع ا فأين كل تلك الوحول الأخلاقية والنفسية والمادية في حياتنا، إنّنا نعيش مع الصفاء ومع النقاء ومع كل الينابيع المتدفقة من ا سبحانه وتعالى وهي ينابيع الفكر والروح والحركة والحياة، فتعالوا من أجل أن نعيش السنة رمضاناً في معنى رمضان وإن ابتعد عنا زمان رمضان.